سمط الجوهر الفاخر
من مفاخر النبي الأول والآخر

تأليف
محمد المهدي بن أحمد بن علي العباسي العمري

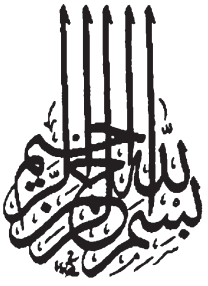
بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـة

الحمد لله رب العالمين، الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق كله، فجعله شاهدا ومبشرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، وجعل فيه الأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا.

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد : فهذا كتاب مبارك في سيرة خير البشر، لمؤلفه محمد المهدي الفاسي (ت : 1109هـ)، وهو جوهرة نفيسة، جمع فيها صاحبها درر السيرة العطرة، فسماه «سمط الجوهر الفاخر من مفاخر النبي الأول والآخر». فكان الكتاب بحق نصرة علمية للسراج المنير لبنة التمام سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام. نصرة تبرز مقام حامل لواء الشريعة الإسلامية الغراء، صاحب المقام المحمود والدرجة الرفيعة، وخاتم النبيئين وإمام المرسلين، وحجة الله على الخلق أجمعين.فجعل الله العزة والنصرة والولاية والتمكين لمن اتبع هداه وترسم خطاه إلى يوم الدين.

ومن واجب العلماء اليوم أكثر من أي وقت مضى نصرة هذا الدين من خلال تمثل سيرته صلى الله عليه وسلم. والتعريف بدقائق تفاصيلها لأجيال الأمم، وذلك بالتأليف فيها بما يقرب الناس من ملامح التشريع الإسلامي وروح العقيدة الإسلامية، والتعريف بيسر الإسلام وسماحته وعالميته، وكذلك نصرة حامل لواء الحق نبي الأمة ونبي الرحمة والعدل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

هذا النبي الكريم الذي اجتمع له صلى الله عليه وسلم ما لم يجتمع لغيره من خصال الكمال وأوصاف الجلال، ونعوت الجمال الباطنة والظاهرة. فقد تميز

صلى الله عليه وسلم بوفور العقل، وصحة الفهم، وحباه الله بسعة الحلم وبسطة العلم، وعلو الهمة في الافتقار إلى الله والغنى به والتوكل عليه، والإخبات له والخشوع بين يديه والخضوع لعظمته.

فقد كان صلى الله عليه وسلم مع الخلق يتصف بسعة الصدر والرأفة والرحمة واللين وخفض الجناح، والأمانة والثقة والصدق والصفح والإحسان. إنه صاحب السيرة البديعة والخصال الحميدة، والأخلاق الكريمة.

ففي اتباع منهجه تحل المشكلات وتتجاوز المعضلات، وبتمثل سيرته تتآلف القلوب، وبمحبته تندثر العيوب، وتنيب إلى علام الغيوب. فهو الرحمة المهداة إلى كافة الناس بل إلى عامة الثقلين. من سار على خطاه ثبت ممشاه ومن حاد عنها، ضل سعيه ومثواه.

فلما كان انشغال المؤلف بهذه الدرر النفيسة من حياة أنفس الناس، وقع حظي واختياري على أنفس الجواهر من حياة خير البشر في كتاب «سمط الجوهر الفاخر من مفاخر النبي الأول والآخر». فوجهت عنايتي واهتمامي لتحقيق الكتاب المبارك، بخدمة نصه وتوثيقه. فكانت دوافع الاهتمام والاختيار تتمثل في أمرين :

أحدهما : قيمة الكتاب الذي استمد شرفه ومكانته من قيمته العلمية التي اهتمت بسيرة خير البشر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فهو كما قال الإمام الزهري : «علم الدنيا والآخرة». استوعب فيه المؤلف تفاصيل حياته صلى الله عليه وسلم أو كما قال : «هو كتاب في السيرة والشمائل والمعجزات والخصائص والفضائل». وتأتي أهمية الكتاب أيضا في اهتمام المؤلف بالكثير من العلوم الشرعية، وكيف تفاعل المجتمع الإسلامي الأول معها، في ظل المنهج النبوي الفريد، في التدقيق والتحرير والاستنباط. مما جعل محمد المهدي الفاسي يقف عندها مليا. فجاء الكتاب –بالإضافة إلى سيرته العطرة– مستوعبا للكثير من القضايا العلمية المفيدة ونذكر منها تمثيلا لا حصرا :

– **الأقضية والفتاوى** : فاهتم بمنزلة الإفتاء على عهده صلى الله عليه وسلم، فذكر الصحابة الكرام الذين تصدوا للإفتاء والقضاء بإذن من النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، معلما إياهم المنهج السديد في تدبير القضايا والنوازل. كما عقد المؤلف فصولا هامة في بعض القضايا الفقهية، معتمدا في ذلك على أقوال العلماء من أهل الشأن.

- **مسألة جمع القرآن الكريم** : وقصد به ذلك الجمع الذي كان على عهده صلى الله عليه وسلم من لدن الصحابة الكرام، حفظا في الصدور وكتابة في السطور.
- **طبقات الصحابة** : وفيه عرف المؤلف بالصحابة ومنزلتهم عند الله، وكذلك تطرق لطبقاتهم ومراتبهم، فهم رضوان الله عليهم شهود الوحي والتنزيل.
- **الوحي القرآني** : عرف فيه بالوحي وذكر أنواعه وصفاته ومراتبه، وكيف كان الوحي يتنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.
- **علم الرجال** : وفيه ذكر المؤلف انشغالات الصحابة واخصاصاتهم على عهده صلى الله عليه وسلم، فذكر أهل الصفة والنجباء والنقباء والمشهود لهم بالجنة، وكذلك خدامه صلى الله عليه وسلم، وكتاب الوحي وشعراؤه صلى الله عليه وسلم وهكذا.
- **ذكر أحداث السيرةالنبوية عبر السنين** : فسار على نهج المؤرخين في سرد الأحداث عبر سنوات الهجرة المباركة ابتداء من السنة الأولى إلى سنة وفاته صلى الله عليه وسلم.

كما شغل الكتاب مواضيع أخرى ذات أهمية كبرى، جد المؤلف في طلبها من مظانها، حتى اكتملت فصوله، فجمع وأوعى ما تفرق في كتب السير والمغازي والتفسيروالتاريخ والفقه واللغة من الدرر اللامعة والنكت البديعة في سيرة سيد الخلق السراج المضيء للأمة على نهج رب العالمين.

ثانيها : أن الكتاب من تأليف عالم من كبار علماء المغرب وهو أبو عبد الله محمد المهدي بن أحمد بن علي بن يوسف الفاسي الحافظ الحجة الضابط المتقن العلامة الصوفي الذي ينتمي إلى أعرق بيوتات العلم بمدينة فاس بالمغرب. فكان حقا عالما كبيرا ينتفع بعلمه، فهو صاحب زهد وتربية وعبادة تربى على يد شيوخ كبار، ونهل من علمهم وتحلى بحلمهم.

وبهذا فإن العلماء المغاربة هم أيضا نفعوا الأمة بعلمهم الغزير، وفهمهم الوفير في خدمة العلوم الإسلامية بحثا وتدقيقا، واختصارا وتحقيقا، وشرحا وتنقيحا، فعدوا بحق في طليعة رواد الفكر الإسلامي.

ومكتباتنا المغربية الخاصة والعامة تزخر بذخائر المطبوعات والمخطوطات في شتى العلوم الإسلامية والإنسانية على حد سواء. تشهد للعطاء العلمي الذي تميز به علماء المغرب.

أما في مجال السيرة النبوية فقد ألفت التآليف العديدة وصنفت التصانيف المفيدة. وشكر الله عمل أستاذنا الكبيرفضيلة الدكتورمحمد يسف على مصنفه الجليل الذي ألفه في «المصنفات المغربية في السيرة النبوية» فقد أجلى حفظه الله جهد المغاربة في علم السيرة النبوية، فذكر ثبتا مهما بأهم المؤلفات في الموضوع.

والاهتمام بعلم السيرة النبوية له خصوصيته يتفرد بها عن باقي العلوم والفنون الأخرى فهي، وكما قال عميد السيرة النبوية بالمغرب الدكتور محمد يسف : «هي محور حركة المسلم ونشاطه، وقاعدة أساسية تمثل السلوكية الإسلامية في أسمى مظاهرها، فعندما يعكف المسلم على دراسة السيرة النبوية، فإنما يبحث عن القيم الإسلامية الأصيلة من خلال أحداث ووقائع، ومواقف في عصر التكوين الحقيقي لمعالم الشخصية الإسلامية».

أما عملي في الكتاب : فبداية وضعت تقديما لازما عرفت فيه بالمؤلف، وشيوخه وتلامذته، وإنتاجه العلمي الغزير الذي تنوعت علومه وفوائده.وكذلك قمت بدراسة مختصرة عن الكتاب وتوثيق نسبته إلى مؤلفه.

أما نص الكتاب فحققته وفق المنهج العلمي المتعارف عليه عند أهل التحقيق.وذلك بتنظيم مادته العلمية، وتخريج الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، وتوثيق النصوص والأقوال والأحداث، ثم الترجمة لجل الأعلام الواردة في النص، والتعريف بالبلدان والقبائل، وشرح الغريب من الألفاظ، ووضع تعاليق وشروح وإضافات تفيد في ضبط النص وفهمه.

وأخيرا ختمت البحث بفهارس فنية تفصيلية، افتتحتها بالآيات القرآنية ثم الحديث النبوي الشريف ثم القبائل، والأماكن والبلدان، ثم الأعلام وبعدها الأشعار، ثم ثبت المصادر والمراجع، وأخيرا وضعت فهرسا لموضوعات التقديم والتحقيق.

فأسأل الله العلي القدير أن أكون قد وفقت في إغناء هذاالعمل الكبير بضبط نصه وتوثيقه، ويبقى جهدي فيه جهد المقل، الذي كد فيه و لم يمل، لأنه في سيرة سيد الخلق المجل.

وختاما : فلله الحمد والمنة على أن وافاني بوفور النعمة، وتولني بالعناية والرحمة، حتى استكملت فصول هذا الكتاب، الذ ي عشت في تحقيقه وتوثيقه جزءا غير يسير من عمري، فاللهم يارب اجعل لي ولقارئه بكل حرف حسنة،وحفظا وسترا،كما نسألك يارب العزة أن تنفع به أجيال هذه الأمة.

﴿ربنا لا تواخذنا إن نسينا أو اخطأنا ربنا ولا تحمِل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنا واغفرلنا وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾.

وبالله التوفيق.

سعاد رحائم

الفصل الأول

التعريف بمحمد المهدي الفاسي (ت 1109) ومنزلته العلمية واهتمامه بعلم التصوف

المبحث الأول : اسمه ونسبه وولادته ونشأته :

*** اسمه ونسبه :**

هو أبو عبد الله المهدي بن أحمد بن علي بن الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي الفهري.

ولد بمدينة القصر الكبير في آخر رجب سنة ثلاث وثلاثين وألف (1033هـ). وكانت نشأته وعلمه بمدينة فاس، ولذلك سمي بالفاسي.

وسمي أيضا بالفهري لأن نسبه العريق يرجع إلى قريش من بني فهر بن مالك، يقول المولى سليمان في هذا النسب : «ثم هم من بني عدي، وكلاهما ابن لكعب ابن لؤي»[1].

وتنتسب هذه العائلة الفهرية إلى جدهم الأعلى ابن أبي الجد الذين كانوا يستوطنون جزيرة الأندلس[2]، وكان هذا النسب ثابتا لهم من تلك الطريق المذكورة. و أهل الأندلس عموما وخصوصا لا يعرفونهم إلا بهذا النسب الفهري، ويذكر صاحب العناية[3] : أنهم من أعظم بيوت الأندلس علما ومروءة ووجاهة ورياسة، وكانوا يستوطنون اشبيلية، إذ حوصرت من طرف النصارى، ومنها انتقلوا إلى مالقة، ومنها إلى فاس سنة 880هـ.

(1) عناية أولي المجد : ص. 3.
(2) مؤرخو الشرفاء : ص. 168.
(3) عناية أولي المجد : ص. 4، 5، 6.

ورحلت بيوت مالقة بسبب تلك الفتن، واستوطن منهم مدينة فاس الأخوان أبو زيد عبد الرحمن، وأبو العباس أحمد ابنا أبي بكر ابن الجد.

وتوفي الأخوان معا في طاعون 880 هـ، و لم يخلف عبد الرحمن إلا ابنه يوسف صبيا صغيرا، وأما أخوه أحمد فلم يخلف عقبا.

فمن أعقاب هذا الجد- أبو زيد عبد الرحمان- الذي خلف ولدا واحدا هو يوسف الكناني[1] ومنه تناسلت العائلة الفهرية[2]، وإليها ينتسب محمد المهدي الفاسي مترجمنا.

هذا هو نسبه وهو نسب عريق وشريف يلتقي بنسب الرسول صلى الله عليه وسلم. ومحمد المهدي اسم مركب للمؤلف وبه عرف، كنيته أبو عبد الله وهو الغالب عليه.

*** ولادته ونشأته :**

اتفقت كتب التراجم[3] على أن محمد المهدي الفاسي ولد بالقصر الكبير وزاد

---

(1) عناية أولي المجد : الصفحات : 11 -12 -13.

(2) اهتم المولى سليمان بالترجمة لأعيان هذه العائلة الفاسية الفهرية في كتابه المسمى عناية أولي المجد بذكر آل الفاسي ابن الجد، ويذكر المولى سليمان أن هذه العائلة كانت تتردد بين القصر الكبير ومدينة فاس، إذ أن يوسف بن عبد الرحمان كان يرحل من مدينة فاس إلى القصر الكبير قصد التجارة حتى تزوج هناك، وتوفي بالقصر في حدود 920هـ، ومن أبنائه من استقر بالقصر الكبير ومنهم من ارتحل إلى فاس من جديد.
ويذكر بروفنصال في كتابه مؤرخو الشرفاء : ص. 170 : أن مدينة القصر الكبير كانت عهدئذ مركزا هاما للتبادل التجاري نظرا لكونها من ثغور المغرب الإسلامي ولقربها من البلدان الساحلية التي كانت بيد النصارى.

(3) أما كتب التراجم التي ترجمت لمحمد المهدي الفاسي :
- عناية أولي المجد بذكر آل الفاسي ابن الجد للمولى سليمان.
- سلوة الأنفاس لمحمد بن جعفر الكتاني.
- فهرس الفهارس والإثبات لعبد الحي الكتاني.
- نشر المثاني لمحمد بن الطيب القادري .
- التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر لمحمد الطيب القادري.
- مؤرخو الشرفاء : ليفي بروفنصال. =

صاحب السلوة[1] بالقطانين منه آخر ليلة السبت آخر يوم من رجب سنة ثلاث وثلاثين وألف (1033هـ).

نشأ في حجر أبيه الشيخ أحمد بن علي بن يوسف الفاسي في عفاف وصيانة ودار علم ومشيخة.

تعود إليه الإمامة في العلم والعمل والورع والزهد على قدم أهل التجريد شديد التحري في أموره كلها، متبعا لأهل السنة في أقواله وأفعاله، مجتهدا في العبادة، كثير الأذكار، يقول صاحب السلوة[2] واصفا عبادته : «يقوم من الليل فيصلي بعشرة أحزاب، ذلك دأبه أبدا إلى أن كبرت سنه وضعفت قوته، فصار يصلي بخمسة أحزاب، وإذا كان في الصلاة استغرق فيها، فيسمع وشيجه من بعيد».

ومن جميل سيرته رحمه الله، أنه كان رفيع الأخلاق عالي الهمة متواضعا كريما يحب الخير للناس، وكان لا يأكل إلا من عمل يده بنسخ التصانيف، ولا ينسخ لمن في ماله شبهة.

واشتهر بالورع والعفاف والعبادة وبترفعه عن قبول الهدايا. ومن ورعه أن السلطان مولاي الرشيد بعث له بخمسين دينارا لما ذكر له من صلاحه وفضله، فأبى أن يقبضها، وطالما حاوله الذي جاءه بها أن يمسها بيده فما فعل[3].

= – الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية لمحمد الأخضر.
– معجم المطبوعات العربية : سركيس.
– دليل مؤرخ المغرب الأقصى : ابن سودة.
– تذكرة المحسنين بوفيات الأعيان وحوادث السنين لابن المجذوب الفاسي : مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط رقم : 2235.
– أزهار البستان في طبقات الأعيان : لأحمد بن عجيبة الحسني مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط رقم : 417.

(1) سلوة الأنفاس : 316/2.
(2) المصدر نفسه : 316/2.
(3) انظر سلوة الأنفاس : 316/2.
– ومؤرخو الشرفاء : ص. 192.

ويصف زهده وورعه صاحب نشر المثاني[1] ناقلا عن صاحب المقصد[2] قائلا : «صاحبنا ومفيدنا السيد الفقيه النبيل المشارك العالم المحدث الصوفي الجليل الداركة الواعية الجليل المصنف المفيد، المتقي المجيد، ذو الفكر الصائب، والذهن الثاقب، الفاضل المبارك المنيف المنور والأعرف الزاهد العفيف الخير البركة أبو عبد الله المهدي».

واتباعا لنهج السلف الصالح، وسيرا على مذهب ونهج المغاربة، واقتداء كذلك بالعائلة الفاسية الفهرية وجهه والده أحمد بن علي الفاسي إلى حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة حتى أتقن حفظه وأحكم أداءه ورسمه[3].

وتحفيظ القرآن الكريم في سن مبكرة هو دأب المغاربة وديدنهم هذا وإن دل على شيء، فإنما يدل على الأصالة في الدين والحفاظ على معالمه، وأولى معالمه القرآن الكريم.

وللعلامة ابن خلدون في تحفيظ القرآن الكريم كلام طويل يقول فيه : «اعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار الدين، أخذ به أهل الملة، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم، لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان، وعقائده، من آيات القرآن، وبعض متون الأحاديث، وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعد من الملكات. وسبب ذلك أن التعليم في الصغر أشد رسوخا، وهو أصل لما بعده، لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات، وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال من ينبني عليه»[4].

وعن طريق المغاربة في تحفيظ أولادهم القرآن الكريم، يقول ابن خلدون أيضا في مقدمة تاريخه : «فأما أهل المغرب، فمذهبهم في الولدان الاقتصار على القرآن

(1) نشر المثاني : 80/2.

(2) صاحب «المقصد» هو أبو محمد عبد السلام بن الطيب القادري ولد بفاس سنة 1058هـ، اهتم بدراسة أنساب الشرفاء المستقرين بفاس مهما كان الفرع الذي يربطهم بالشجرة النبوية في كتاب المسمى «بالمقصد الأحمد في التعريف بسيدنا عبد الله أحمد».
– مؤرخو الشرفاء : ص. 196.

(3) عناية أولي المجد : .44 :

(4) مقدمة ابن خلدون : ص. 470.

فقط، وأخذهم أثناء المدارسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه، لا يخلطون ذلك بسواه من مجالس تعليمهم لا من حديث ولا من فقه، لا من شعر، ولا من كلام العرب إلى أن يحذق فيه أو ينقطع دونه، فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعا عن العلم بالجملة وهذا مذهب أهل الأمصار في المغرب، ومن تبعهم من قرى البربر إلى أن يجاوزوا حد البلوغ إلى الشبيبة ...»[1].

ولما أتقن محمد المهدي الفاسي حفظ القرآن الكريم بموطن مولده القصر الكبير ارتحل إلى مدينة فاس[2] لينهل من علمها الفياض ويأخذ عن شيوخها الكبار.

ومدينة فاس كما وصفها المؤرخون –وكما هو معروف– مدينة لم تزل يوم أسست مأوى للغرباء، من دخلها استوطنها وصلح حاله بها، وقد نزلها كثير من الفقهاء والعلماء، والصلحاء والأدباء، فهي في القديم والحديث دار علم وفقه وصلاح ودين وهي قاعدة بلاد المغرب وقطرها ومركزها.

ففي ربوع هذه المدينة العريضة اكتملت نشأة محمد المهدي الفاسي موطن عائلته الفاسية الفهرية واشتغل بقراءة العلم حتى صار عالما كبيرا يرجع إليه في كثير من العلوم والفنون.

ووصفه صاحب التقاط الدرر[3] قائلا : «أبو عبد الله محمد المهدي بن أحمد بن علي بن أبي المحاسن رأس في العلم والعمل والزهد والورع».

وكانت وفاته رحمه الله بمدينة فاس في يوم السبت تاسع شعبان سنة تسع ومائة وألف (1109 هـ)، ودفن بداخل قبة جده الشيخ أبي المحاسن يوسف قريبا منه.

---

(1) المصدر نفسه : ص. 470.

(2) مدينة فاس تعد من أعظم مدن المغرب الأقصى، وهما مدينتان مقترنتان يشق بينهما نهر كبير يسمى وادي فاس، وأسست عدوة الأندلسيين في سنة 192 هـ، وعدوة القرويين في سنة 193 هـ في ولاية ادريس بن ادريس الفاطمي الذي قام بتأسيسها.
– انظر : الروض المعطار : 434. والأنيس المطرب : 38.

(3) التقاط الدرر : 272.

ويذكر صاحب السلوة[1] أن ترجمة محمد المهدي الفاسي واسعة جدا وأخباره كثيرة، وقد ألف فيها بالخصوص الفقيه المؤرخ أبو العباس بن عبد الوهاب الوزير الغساني[2] وسماه : «جلاء القلب القاسي بمحاسن سيدي المهدي الفاسي»[3].

المبحث الثاني :

*** منزلته العلمية واهتمامه بعلم التصوف :**

مما لا شك فيه أن محمدا المهدي الفاسي استطاع بهمته العالية ونبوغه الفكري العميق، وقوة حفظه واستنباطه، بالإضافة إلى صلاحه أن يكون عالما متفقها، متضلعا في مختلف العلوم، راسخ الملكة في أكثر الفنون.

ويصف المولى سلميان[4] رسوخه في كثير من العلوم قائلا : «صار رأسا في العربية والفقه والعقائد، وأما التفسير والحديث والسير والتاريخ والأنساب فلا يدرك له فيها شأو في وقته مع الضبط والإتقان وجودة الخط بما أربى على الأقران، فتجرد عاكفا على التدريس والتأليف والتقييد والعبادة والإضافة والاستفادة».

وعنه قال صاحب السلوة[5] «فكان الإمام الكبير الشأن الجامع بين العلم والعرفان، متضلعا بالشريعة والحقيقة سالكا بهما على مثلى الطريقة، واسع العارضة في الحفظ والتحصيل لا يجاريه في التحقيق محقق ولا نبيل. وكان متجردا دائما لتدريس العلم والتأليف والتقييد والإفادة والاستفادة».

ونظرا لهذه المكانة العلمية التي تبوأها محمد المهدي الفاسي، كان يفد عليه الناس والطلبة من كل صوب وحدب يأخذون عنه، ويستفتونه فيما غمض عليهم، إذ كان

(1) سلوة الأنفاس : 317/2.

(2) هو أبو العباس أحمد بن عبد الوهاب الوزير الغساني أخو سفير السلطان المولى إسماعيل إلى إسبانيا محمد الوزير. ولد بفاس سنة 1063هـ، كان من الملازمين للشيخ أحمد بن عبد الله معن، ولي التوثيق والإمامة بضريح محمد بن عبد الله بن معن من مؤلفاته : «جلاء القلب القاسي».
– مؤرخو الشرفاء : ص. 215.

(3) لعل الكتاب من أهم الكتب التي ترجمت لمحمد الفاسي غير أني لم أقف عليه في المكتبات العامة. ويذكر محمد الأخضر في فهرسة كتابه «الحياة الأدبية في المغرب». أن كتاب «جلاء القلب القاسي» مخطوط خاص بمكتبة العابد الفاسي».

(4) عناية أولي المجد : ص. 45.

(5) سلوة الأنفاس : 317/2.

قوي الاستنباط فائقا على غيره في المناظرات العلمية، متجليا في كل ذلك بسمة التواضع العلمي.

ومؤلفاته العديدة في مختلف العلوم خير شاهد على هذه المنزلة العلمية المتألقة.

*** اهتمامه بعلم التصوف :**

كان محمد المهدي الفاسي محبا لأخبار الصالحين، بهجا بذكر كراماتهم، معتنيا بجمع محاسنهم، غواصا على دقائق علم التصوف، مبينا لما أشكل منه.

أخذ علم الطريقة عن الشيخ سيدي محمد بن عبد الله الأندلسي، الذي كان مفرطا في إطرائه، شديد المحبة له ملازما لزاويته، مواظبا على قراءة الأحزاب بها[1]، إذ لازمه بقصد الاقتداء والاتباع والتبرك والانتفاع، فانتفع به نفعا ظاهرا وباطنا، ونال منه بركة وخيرا وافرا، وحصل له فتح في الطريق، وذوق في التحقيق، وبقي معه إلى أن توفي حيث امتدت صحبته له سبع سنين[2].

ومن اهتمام محمد المهدي الفاسي بعلم التصوف عنايته على الخصوص بالحركة الصوفية بالمغرب حتى نهاية القرن الحادي عشر الهجري.

واهتم أيضا بتاريخ المدرسة الشاذلية وما تفرع عنها من الطريقة الجزولية[3] والزروقية. حيث عرفت الطريقة الشاذلية– التي زرع بذورها الإمام أبو الحسن الشاذلي[4] تلميذ القطب الشهير مولاي عبد السلام بن مشيش منذ ظهورها في

(1) سلوة الأنفاس : 317/2.

(2) نشر المثاني : 18/2.

(3) يذكر بروفنصال في كتابه مؤرخو الشرفاء : ص. 163 أن ابن عسكر يعد المؤرخ الأول للحركة الجزولية بالمغرب في كتابه المسمى «دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر».

(4) ترجمته في – شرح الحزب الكبير لأبي زيد عبد الرحمن الفاسي، وهو مخطوط بالخزانة العلمية الصبيحية بسلا رقم : 200 الورقة : 3 أ.
– شجرة النور الزكية : ص. 186.
وللإمام الشاذلي عدة أحزاب بها اشتهر منها الحزب الكبير، وحزب اللطف، وحزب الفتح، وحزب الوسيلة، وحزب البحر، وحزب النجاة، وهي مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط رقم المخطوط : 3352 د ضمن مجموع من الورقة : 218 أ إلى الورقة : 288ب.

المغرب حوالي القرن الثامن الهجري- تطورا سريعا لتصل أوج ازدهارها، ولتحقق بعد ذلك السيادة المطلقة من لدن مجدديها على الطريقة الجزولية والزروقية.

وعن الطريقة الشاذلية يقول محمد المهدي الفاسي : «ثم الشيخ القطب شيخ الطريقة : أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه له طريقان : طريق الإرادة وطريق التبرك : فأما طريق الإرادة والتحكم فليس له فيهما إلا الشيخ القطب أبو محمد عبد السلام بن مشيش الشريف الحسني الإدريسي المحمدي صاحب جبل العلم رضي الله عنه»[1].

ويرى محمد المهدي الفاسي أنه لما كان غالب طرق «أهل الله» بالمغرب في هاتين المائتين العاشرة والحادية عشر، ترجع إلى شيخين جليلين الشيخ الإمام العالم الكامل القطب الجامع أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن سليمان الجزولي[2] ثم السملالي الشريف الحسني. والشيخ الإمام العلامة العارف الرباني شيخ وقته أبو العباس أحمد بن أحمد بن عيسى البرنسي الفاسي المعروف بالشيخ زروق[3].

اهتم محمد المهدي بطريقتيهما في العديد من مؤلفاته، وذكر طرق أسانيدهما إلى الطريقة الشاذلية خاصة في كتابه : «ممتع الأسماع في أخبار الجزولي والتباع ومن لهما من الأتباع» فالكتاب عبارة عن تاريخ للحركة الجزولية بالمغرب في شكل سلسلة من التراجم لأشهر رجالاتها، وفي مقدمتهم أبو عبد الله الجزولي، وأبو فارس عبد العزيز التباع، أجمل فيها أخبارهم، وما كان لهم في شأن ميادين الورع والإحسان.

وأتبع هذا الكتاب بمؤلف آخر في الموضوع نفسه سماه : «الإلماع ببعض من لم يذكر في ممتع الأسماع وتحفة أهل الصديقية بأسانيد أهل الطائفة الجزولية والزروقية» وفيه تحدث عن أحمد زروق مؤسس الطائفة الصوفية المتفرعة عن المدرسة الجزولية.

(1) ذكره في مطلع كتابه «تحفة أهل الصديقية»، وهو مخطوط الخزانة العامة بالرباط : رقم : 2990 ك.
(2) ترجمته في الضوء اللامع : 258/7.
- وسلوة الأنفاس : 339/3.
(3) ترجم له ابن عسكر في الدوحة : 38.
- وابن القاضي في الجذوة : 64.
- وأحمد بابا في نيل الابتهاج : 71.
- ومحمد العربي الفاسي في مرآة المحاسن : 192.
- والكتاني في السلوة : 183/3.

أما عن طريقة محمد المهدي الفاسي فهي بدون شك طريقة فاسية مجذوبية يرجع أصلها إلى جده أبي المحاسن[1] الشيخ العارف القطب يوسف بن محمد بن يوسف بن عبد الرحمان بن أبي بكر الحفيد بن الجد الفهري، يعرف بالفاسي، ولد سنة 937هـ بالقصر الكبير، وبه نشأ، قرأ القرآن العظيم في صباه وأحكم قراءته بحرف نافع على الشيخ الصالح أبي الحسن العربي، وقرأ على بعض شيوخه رسالة ابن أبي زيد القيرواني، وألفية ابن مالك ولاميته ... سافر مع أبيه إلى مدينة فاس بقصد القراءة، فأخذ بها عن جماعة من أكابر الشيوخ، كان يعقد مجالس لإقراء أنواع العلوم، تنافس الناس في حضورها والإكباب عليها، قال فيه المولى سليمان : «كان فصيح اللسان متمكنا من الإيضاح والبيان، أعطي بسطة في التعبير، وإيراد المعنى الغامض باللفظ السهل القصير، وتنزيل المعقول منزلة المحسوس ... وكان يطرز ما يلقيه من أنواع العلوم بنكث ربانية، وإشارات عرفانية وإشادات رقيقة، وحكايات رشيقة، لا يصدر ذلك إلا عن قلب معمور ولسان مأمور، وحال غالب وقلب طالب...».

أخذ أبو المحاسن يوسف طريقته الصوفية عن والده وعن جده أبي الحجاج بن عبد الرحمان، إذ كان والده محمد بن يوسف من كبار أصحاب مؤسسي الطريقة الزروقية[2]، بينما انتسب جده إلى الطريقة الجزولية[3].

وانعكس هذا التراث الروحي على حياة أبي المحاسن، إذ انخرط في سلك الطريقة منذ صباه[4]، وكان له رحلات علمية صوفية متكررة لمؤسسات العلم والتصوف في مختلف نواحي المغرب.

(1) ترجمته في : عناية أولي المجد : ص. 16-17-18.
– مرآة المحاسن : 8.
– ابتهاج القلوب : 181.
– ممتع الأسماع : 121.
– مؤرخو الشرفاء : 168.
(2) مرآة المحاسن : 135.
(3) المصدر نفسه : 135.
(4) عناية أولي المجد : 17.
– مرآة المحاسن : 8.
– ممتع الأسماع : 119.
– سلوة الأنفاس : 307/2.

وتنتسب الطريقة المجذوبية إلى الشيخ أبي زيد عبد الرحمان المجذوب[1]، الذي صحبه أبو المحاسن يوسف، وأخذ عنه الطريقة وشب عليها.

وكان عبد الرحمان المجذوب يقول في أبي المحاسن بأنه يكون إماما في العلمين الظاهر والباطن، ويقول إنه لا بد أن يكون في مقام الغزالي[2].

وعن هذا الإرث الصوفي الفاسي الذي سمي بالطريقة المجذوبية يقول صاحب أزهار البستان «أحاط بميراثه وذهب بأسبابه الشيخ الكامل الموصل الواصل القطب الإلهي المتمكن أبو المحاسن يوسف بن محمد الفاسي ... ثم أحاط بميراثه بفضله أخوه الأكبر المقدم في كل فن من علوم الشرع سلطان العشاق أبو محمد عبد الرحمان العارف بن محمد ثم أحاط بميراثها الشيخ الكامل سيدي محمد بن محمد بن عبد الله ويعرف بمعن[3]...»[4].

ثم انتقل هذا الإرث الصوفي إلى الشيخ قاسم الجصاصي، والشيخ أحمد بن عبد الله بن معن، وعن هؤلاء الشيوخ الأعلام أخذ محمد المهدي الفاسي الطريقة الصوفية المسماة بالفاسية انتسابا إلى أبي المحاسن يوسف الفاسي، أو المجذوبية انتسابا إلى شيخ أبي المحاسن عبد الرحمن المجذوب[5].

هذه الطريقة التي امتزجت بكمالات روحية للشيخين الفاسي أبي المحاسن يوسف، والمجذوب أبي زيد عبد الرحمان، ويصف صاحب المقصد الأحمد هذا المزج بقوله : «اعلم أن الطريقة المجذوبية ذاهبة على سنن العرفان والمحبوبية من معرفة الله وكماله وجلاله وصفاته العلا وأساميه الحسنى، دائرة على الجذب والفنا، وخلوص التوحيد وكمال التجريد والعيان والشهود والغيبة في المعبود، ومشاهدة

(1) الشيخ العارف الكامل قطب الأحوال أبو زيد عبد الرحمان المجذوب بن عبد القادر الدكالي الفرجي :
– عناية أولي المجد : 18.
(2) عناية أولي المجد : 19.
(3) هو أحد شيوخ محمد المهدي الفاسي سوف نتعرض لترجمته في الفصل المخصص لشيوخه.
(4) أزهار البستان في مناقب الشيخ أبي محمد عبد الرحمن، لعبد الرحمن الفاسي : وهو مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط رقم : 583 : ص. 7.
(5) المصدر نفسه : 289.

أن الحب وكل خير مزيد من مالك الملوك لا من العبيد، وهذه الطريقة هي طريق الولادة الروحانية ومنبع أسرارها. وقد زادها الشيخ أبو المحاسن الفاسي كمال تربية وتهذيب ورياضة معنوية».

وكانت تعتمد هذه الطريقة ملازمة قراءة الأحزاب الشاذلية كحزب البحر، وحزب الفلاح، والحزب الكبير، والوظيفة الزروقية والصلاة المشيشية، ثم حلقات الذكر من هيللة وتصلية وحمدلة.

هذا أهم ما يميز مكانة محمد الفاسي المهدي العلمية، واهتمامه بحركة التصوف ورجالاتها.